منازل الحقيقة

أمّي الحبيبة :" لكلّ شخص عدد أنفاس يُفرغها في الهواء قبل أن ينام للأبد. الحياة غريبة.أمّي، لا أدري بما أصف ما حدث معي. إنّها قصّة شخص لا يُشبه البشر"

غادرت المقبرة يومها بعد أن وقفت لبرهة على رُفات والدتي الرّاحلة.كان الخريف يستعرض قوّته على قمم الشجر وبين الأرصفة.. كان جبّارًا. رياحه هاجمت معطفي بلا رحمة . كنت أشعر بالسّعادة رغم ذلك؛ هذا أوّل يوم لي في العمل.أخيرًا وبعد ادّعائي الصبر لأشهر طوال، دقّ جرس القدر ليُميت سويعات البطالة وأنعم ببعض الرصانة.

حملتني ساقاي المُفعمتين بالفخر ناح بناء قديم . رفعت رأسي لأقرأ ما كُتب على اللّوح المُثبت فوق بابه (دار الرّحمة). لم يعن لي ذلك الاسم شيئا! لم تندح في قلبي أية إشارة تدعم إحساسًا من أي نوع! كانت الكلمة للعقل. ما حمله فكري كان يصب ضمن أيام ستتطاول حتى تتعدّى الثلاثين، تُثمر أياديها راتبًا يجعلني أنزع عن نفسي لقب الجامعي المُفلس. ليتني عرفت ما ينتظرني وقتها!

طويت صفحة الماضي وفتحت ذلك الباب الذي لم يكُن في نظري سوى صفحة جديدة مُشرقة ، صفحة سأكتب عليها انطلاقتي السعيدة .قابلتني ساحة كبيرة تنتهي إلى مبنيين مُتقابلين. قصدت مكتب المدير، أنهيت توقيع الأوراق الباردة شزرًا؛ الراتب لم يكن سخيًا!

"لا بأس ، إنّه يكفي لإقفال أفواه أصدقائي بعزيمة عشاء شهي يُلمّع صورتي ويرفع من قدري أمامهم، فلطالما كنت الفرد الفقير الذي لا يجرؤ

على مد يده إلى الجيب وإعلان طقوس الكرم " قلت في نفسي دافعًا كلّ إحباط يحاول إذلالي . إنّه وقت جمع المال..

كمن سيعمل ضمن بنك أو ما شابه، تابعت خطوي شابة شاهقة الطول جعلت تريني غُرف نُزلاء المكان . كنت المسؤول عن ثلاثة أشخاص طاعنين في السن ، هل كنت أتوقّع غير ذلك !

مررنا بغرفة مظلمة ، قفلت نوافذها وانسدلت ستائرها لتُفصح الكآبة عن أسرارها، تلفّ المنطقة بنزلات مرعبة للمعنويات. كان هناك فوق السرير شيخٌ يضع نظّارات سوداء كأنّ شمس ظهيرة تهيم فوق رأسه!

"لماذا يقبع في الظلمة ؟" سألت الشّابة المتطاولة في الهواء فردّت من مكان قصي، أظن أن فمها كان يبعد عن كتفي بثلاثة أقدام . قالت :" يدعونه برجل الظُلمة. توفيت زوجته قبل شهر في هذه الغرفة.. كانت عمياء لا تُبصر. يقول بأنه لا يريد رؤية أحد بعدها لكي لا ينسى تقاسيم وجهها ، أليس هذا وفاءً منقطع النظير ؟" أضافت الشابة. لم أفهم سرّ إعجابها . هل ترى هذا وفاءٌ.. الموت في الظل!

الغرفة الموالية كانت مسكن امرأة عجوز لم تختلف في غرابتها عن رجل الظلال لكنّها ناقضته بإشراقتها المميّزة. الضوء يخترق ستائر غرفتها لينعكس على وجهها الملطّخ بمراهم التبييض . شفتاها متوردّتين وشعرها مُمشّط بإتقان لأعلى؛ عروس ستُزّف لتوّها.

"لماذا تضع هذا الكم الهائل من مساحيق التجميل ؟" سألت مرشدتي البعيدة. أجابت قائلة :" السيدة أمل؛ فقدت عقلها بعد أن تخلّى عنها ابنها و خلّفها هنا دون أن يُعقّب. تنتظره كل يوم عند الباب الرئيسي، لكنّه يخذلها في كل مرةّ لتعود إلى غرفتها جريحة محزونة . استيقظنا ذات يوم لنجدها على هذه الحال. تظن نفسها فتاة في العشرين واليوم هو موعدُ زفافها . لا تستغرب. استعد للاحتفال ، عُرسها سيكون طيلة أيّام السنة"

"اخرجا،علي ارتداء الثوب الأبيض " رطنت العجوز. أطبقت الباب لنكُمل نحن رحلتنا العجيبة . صدقًا ، لقد شعرت بالأسى لوضعها وذلك الشيخ المسكين . أنا العابث المستهتر ، رقّ قلبي!

"ماذا سيكون شكلُه يا ترى ؟" سألت نفسي وأنا أقف قُدام الغرفة الأخيرة في الممر. لقد توقّعت حالة مأساوية أخرى تختفي وراء ذلك الباب الأخضر. كما توقّعت شرحًا مُفصلا من الفتاة الواقفة يميني، البعيدة . فنّدت الثواني القادمة ظنوني ، لم يكن صاحب الغرفة من مُحبّي العتمة ولا مُعجبًا بأيام الصبا. كان مُثقفًا ..لا تستغربوا، فأوّل ما سقط عليه بصري كُرّاسة جميلة جعل شيخ عجوز يكتب عليها بنهم. بتركيز كبير كان يفعل ، وفعلت أنا الأمر ذاته لأفهم ما يجري ! كانت هُناك على شمال المدفأة مكتبة صغيرة حوت صنوفًا من الكُتب . " هل هو عالم، كيف لعالم أن يتواجد ها هنا؟"

" من.. هو ؟" تلكأت أنطق السؤال المعتاد فما ردّت العملاقة بل الرجل ذو اللحية البيضاء المستدقّة : "عبدٌ من عباد الله كرّمه الخالق بأن جعله ينعم بسرير مريح ومكان دافئ بعد أن هرم القوام وشحّ النبض"

ما أقول؟ كلامه أصاب مني البقعة الهشة؛ ضُخّ حنونًا ، حكيمًا و مُتزنًا. شيء ما ضرب أركان نفسي الهزيلة لتسقط منها بعضٌ من تفاهتها وتتهشّم على بلاط مملكته. دعاني الشيخ إلى الجلوس إليه.فعلت. أمّا الآنسة فقد غادرت تطارد حاجتها.

قال الرجل العجوز :" ما اسمك يا بُني؟"

" أحمد، أجبت بحياء وتذكّرت على نحو ما أستاذي للعلوم الشرعية فقد كان الوحيد الذي يجعل وجهي يتورّد احترامًا له"

"أحمد ، اسم جميل . خير الأسماء ما عُبّد وحُمّد .لقد أسميت ابني أحمدَ أيضا، إنّه سميّك"

"سميّي ؟" سألت غبيًا. ابتسم الشيخ، أضاف ": السميّ هو ما اشترك معك في الاسم ". بحياء تضاعف ليُشبع وجهي احمرارًا، حرّكت رأسي الجاهل. تبادر إلى ذهني سؤالٌ سريع.انطلق لساني :" أين هو ؟ "

"من تقصد يا بني ؟"

"أحمد ، أقصد ..ابنك "

"يسكن الشارع المجاور ، أعانه الله ، إنّه طبيب مجتهد ..يبذل كل وقته في سبيل رعاية المرضى وإعالة أسرته"

لم أفهم كلامه، هل مجالسة الأذكياء تزيد من وقع غبائي؟ هل هو يدعو لابنه المرموق؟ أم يُثني على شهامته بأن رماه داخل هذا المكان البائس ! جرت القشعريرة في كامل جسدي. أحسست بطهارة قلبه ، شعرت برقّة أبوية ذكرّتني أبي. استقام الشيخ بعدها من مكانه مُستلا كُرّاسته وقلمه وخطا ناحية الباب وهو يقول :" اعذرني يا بُني ، إنّه وقت الكتابة. "

تداخلت الأفكار في رأسي ، فعلا من الصعب فهم الحُكماء . مُتناسيًا الكم الهائل من الأسئلة التي تنط في عقلي، تبرطم ، رميت خطوات متثاقلة قاطعًا طول ذلك الممر سيرًا حيث كانت ساحة دار العجزة مُتكشّفة بسبب النوافذ الزجاجية الشفافة . لقد وصل الرجل العجوز إلى الباحة الأمامية.جلس إلى كرسي يُجاور شجرة دردار كبيرة وهَمّ يكتب. من حسن حظي أن عامل النظافة كان يمر بجواري حينها فسألته عن حكاية العجوز الأبيض." العم جلال، لقد طرده ابنه من المنزل، رماه إلى الشارع كما تُرمى أكياس القمامة، يُقال بأنّه زحف إلى هنا زحفًا بعد أن أوسعه ذلك العاق ضربًا ". بوجه غاضب تملؤه الحسرة مع رشّة مُفرطة من الشفقة ، كنت أنظر إلى العجوز المسكين. " كم أنت عظيم " قالت كل ذرّة عطف بداخلي ..أنا المقفرة جوانحي.

مرّت أيام الخريف مُتسارعة ، ألفت دار الرّحمة، كما ألفت الاهتمام بالسيّد المُظلم ، العجوز الفاتنة و كذا العم جلال.هذا الأخير، غيّرني على نحو مُفيد. كنت أمضي سويعات فراغي بجواره . كان يُنبوع علم لا ينضب وأكثر ..كان بمثابة صفعة حارّة أيقظتني على حقيقة الحياة، على كذبات نفسي .لم أعد بعدها الشاب المادي الذي يسعى بكل سخف لإرضاء أصدقائه الجشعين ، بل أحمدُ المُبتلى بصفات ذميمة يريد التخلص منها بمساعدة شيخ لا حول له ولا قوة.

كانت ليلة شتوية مُثلجة، عندما سمعت نحيب امرأة . ارتديت معطفي وأسرعت نحو الخارج، كانت بجوار البوابة ، أجل. كانت تنظر إلى الرّصيف المجاور والدموع تتسارع لاختراق خدها المُجعّد. كانت السيدة أمل تنوح بكل ما أوتيت من قوّة. لم تكن ترتدي ثوبها الأبيض ، لم يكن يحمل وجهها فرح عرُوس العشرين بل أسى ابنة التسعين . كانت ذراعاها مرفوعتين كأنّها تودّ احتضان النسيم البارد. صاحت تلهج :" ولدي " ثم انهارت إلى الأرض بلا حراك . وصلت متأخّرًا. حاولت إسعافها ولكنّ الأمانة كانت قد فاضت وارتحلت . كانت عيناها مفتوحتين ، دامعتين ، لامعتين . أعادتها لحظات الاحتضار إلى وعيها؛ تذكّرت وليدها فانتظرته بأمل أن يعبر الرصيف ليعانقها .نشجت أبكي بحرقة و أهل دار الرحمة جميعهم. بكيناها قهرًا..دسسناها فورًا تحت التراب.

مرّت أشهر الشتاء كما فعلت غريمتها باعثة الريح ونافثة الأوراق الجافة . بعد موت السيدة أمل ، تعمّقت في فهم ما يُعانيه الأجداد المسنّون في دور العجزة. جهرًا، علمت لون أرضهم و سقف سمائهم ..أدركت نوع جروحهم . العم جلال كان مُعيل عقلي وقلبي. انفصلت عن الشلّة التي كانت تُراوح أيّامي المتماثلة ورُحت أقرأ الكُتب المُكدسة في غرفة العجوز الأشهب. بت أقبع بجوار شجرة الدردار أطالع ما ينفعني وأنظر إلى العم جلال وهو يكتب مُذكّراته . كان فضولي يهيم حول معرفة ما يجول في مخيلته وما يخطّه على الورق الأبيض .

ويا عجبي، خصصّت جزءًا من راتبي كإعانة للدّار ، أجل فعلت!

"ماذا يحدث هنا ؟" سألت عامل التنظيف في ذلك الصباح عندما سمعت صرخات مبحوحة آتية من آخر الممر ." إنه ابن السيد جلال. قرّر أخيرًا زيارته !" هرولت ناح الغرفة، ولكن ما إن وصلتها حتى سدّ طريقي جسد رجل ضخم يضع نظارات طبية ، رائحة التبغ تفوح منه . وجهه الغائم زاد من قلقي، ضربات قلبي تسابقت وتنافرت..تناثرت.

دفعني كثور هائج ثم غاب كزوبعة غبار مجنونة.دلفت بجسدي داخل الغرفة، كان العم جلال ينظر صوبي وقد جحظ منه البصر . هل كان يبكي أم هكذا هُيئ لي ؟ لم يقل كلمة، قبض على موقع قلبه وأخذ يتلوّى من الألم. سقط على مخدعه . "ليس أنت؟" صرخ داخلي . فكرة مُرعبة جالت بخاطري. سدّت الهواء أمام رئتيّ . رُحت أضغط على قلبه أنعشه رغم أني الباغي للإنعاش .استشعرت أنفاسه تنطفئ، لم أوقف حركة يدي على صدره.

" كن قويًّا ، سيدي.. من فضلك كن قويًّا..سيدي " صرخت أجهر باحترامي.

لم ينجُ.. غادر كما فعلت السيدة أمل.استغرق إدراكي ذلك دقائق عديدة. أفقت و مدير الدّار يحاول جاهدًا إزاحة يدي عن جسد المتوفى. زادني ذلك إصرارًا على ضمّه. دفعت المدير بكل قوّتي وانهرت فوق الرجل العجوز أرثيه. أحسست باليتم يناكفني، بفراق أبي يعاود خنقي . غصة رهيبة أدمت قلبي . القاتل كان ابنًا رعاه أبوه حتى غدا رجلا بطول الشجر .. القاتل كان هنا ، ابنًا، لا لأجل التكفير عن ذنبه بل للقضاء على آخر أنفاس أبيه!

أمّي الحبيبة :" كان رجلا عظيمًا ، إنسانًا ، كم أحببته ..دفنته بيدي كما فعلت معك وتركت له في قلبي مُضغة تُنير وفاءً لصنيعه معي . أمّي ، أنا اليوم شخص مختلف. شيخ عاجزٌ أراني نور الحقيقة وتبعته . لقد ورّثني كُراسة مذكراته ..قرأتها أخيرًا ، لقد كتب عن العجز، عن الأبوة ، عن

الإيمان وعن بر الوالدين .أمي ، لقد كتب عنّي فقال :" التقيت شابًا لا يشبه سميّه أو من كان ولدي ، أرى فيه أبًا ناضجًا و وولدًا بارًّا ..إنّه جزء منّي وكلّي صار له".

استحى، وأفقت

مع ضياء أحمله عميقًا في قلبي، ويكأنّي جعلت أطير على السجادة التي كست الرواق الطويل الموصل إلى منفذ واسع لبيت الله .. عندما لمحته، لمحتها.. لمحتهم!

عاقني بصري وحدّق ..التقى نور عينان بكيان ما .. فوُلد ظلام حالك اغتال الضياء الذي عكفت على جمع فُتاته طوال ساعة من القيام، الذي استخلصتهُ جوانحي - جاهدةً- من كلام الرحمن..

سقط شيء منّي لم أعلم ما هو رغم أنّي أيقنت أنّ نظري قد تهشم أمامي ، تثاقل رأسي..ارتخت رقبتي ومعها صورة ملامحي..وافترشت الأرضية.

استحى فاستحييْت..حريق مهول سكن المسافة بيننا.لم يستطع رفع يده..شابٌ فقير توارت أمه خلفه وتعلقت أخته الصغرى بسرابيله..

اقتربتُ الهوينا طارحًا الشموخ الذي ملأ فؤادي وأنا أغادر المسجد، قابضًا على ورقة نقدية دفعتها إليه ..زاجرًا مقلتي ألاّ تنظرا، مجدّدًا.

أخذها وقورًا، بخجل غمر سحنته البيضاء المخضبة ببقع من انكسار الخواطر..

قال : "بارك الله فيك"..همست على عجل" : أعانكم الله "